

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠)

[البقرة: 170]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا تَقَدَّمَ الرَّجْرُ عَنْ اتِّبَاعِ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، ذَكَرَ
هُنَا تَمَسُّكَ الْكَافِرِينَ بِاتِّبَاعِ أَسْلَافِهِمْ، وَرَفُضِ دَعْوَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ تَبَيُّهَا
عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مُتَابَعَةِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَبَيْنَ مُتَابَعَةِ النَّقْلِيدِ (1).

الِاتِّبَاعُ بِلا عَقْلٍ
وَلَا هُدًى، ضَالٌّ
وَهَلَاكٌ وَضِياعٌ

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿مَا أَلْفَيْنَا﴾: مِنَ الْجَذَرِ (لَفَى)، وَأَصْلُ الْمَادَّةِ يُدُلُّ عَلَى انْكِشَافِ
شَيْءٍ وَكَشْفِهِ، وَالْفَيْتَةُ: لَفَيْتُهُ وَوَجَدْتُهُ، الْفَاءُ، وَتَلَاْفَيْتُهُ: تَدَارَكْتُهُ (2)،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ (3)، "وَلَيْسَتْ
هُنَا مُتَعَدِّيَّةٌ إِلَى اثْنَيْنِ، لِأَنَّهَا بِمَعْنَى وَجَدَ، الَّتِي بِمَعْنَى أَصَابَ" (4)،
الْفَيْتَةُ يُصَلِّي: وَجَدْتُهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ (5)، قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ: "الْفَى
الشَّيْءَ: وَجَدَهُ، وَتَلَاْفَاهُ: افْتَقَدَهُ، وَقَوْلُهُ -أَنَشَدَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ-

(أَلْفَى) فَعَلٌ
مُتَعَدِّ بِمَعْنَى
وَجَدَ وَلَقِيَ

يُخْبِرُنِي أَنِّي بِهِ ذُو فَرَايَةٍ *** وَأَنْبَأْتَهُ أَنِّي بِهِ مُتَلَاْفِي
فَسَرَّهُ فَقَالَ: مَعْنَاهُ أَنِّي بِهِ أَدْرِكُ تَأْرِي، وَاللَّفَى: الشَّيْءُ الْمَطْرُوحُ،
كَأَنَّهُ مِنَ الْفَيْتِ، أَوْ تَلَاْفَيْتُ، وَالْجَمْعُ الْفَاءُ، وَإِنَّمَا قَضَيْنَا عَلَيْهِ بِالْيَاءِ
لِأَنَّهَا لَامٌ" (6).

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 1/470، والقنوجي، فتح البيان: 1/338.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لفا).

(3) الزاغبي، المفردات: (لفي).

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/103.

(5) الفيومي، للصباح المنير: (لفي).

(6) للحكم والمحيط الأعظم: 10/418.

العقل غريزة في
الإنسان، لفهم
الخطاب، وإدراك
المجردات

(2) ﴿يَعْقِلُونَ﴾: أَصْلُ مادَّة (عقل) يَدُلُّ على حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ، وَالْعَقْلُ حَابِسٌ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ⁽¹⁾، وَهُوَ نَقِيضُ الْجَهْلِ⁽²⁾، وَأُطْلِقَ الْعَقْلُ - الَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ - عَلَى الْحِجَا وَاللُّبِّ، وَهُوَ غَرِيزَةٌ يَتَهَيَّأُ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى فَهْمِ الْخِطَابِ⁽³⁾، وَقُوَّةٌ مُنْهِيَّةٌ لِقَبُولِ الْعِلْمِ⁽⁴⁾، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الثَّائِي: 103]، يَعْنِي: لَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ يَعْقِلُونَ بِهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُحَلَّلُ وَالْمَحْرَّمُ، وَلَيْسَ لغيرِهِ أَنْ يُحَلَّ وَيُحَرَّمَ⁽⁵⁾، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، قَالَ الْمَاوَرَدِيُّ: "يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَالثَّانِي: لَا يَتَعَبَّرُونَ بِاعتِبَارِ الْعُقْلَاءِ"⁽⁶⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

الآية توجّه
المؤمن
لاستعمال
العقل، والنأي
عن التقليد
الأصم

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَهْلَ الضَّلَالِ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْقُرْآنِ وَالْهُدَى، أَصَرُّوا عَلَى تَقْلِيدِ أَسْلَافِهِمُ الْمُشْرِكِينَ قَائِلِينَ: لَا نَتَّبِعُ دِينَكُمْ، بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَتَتَّبِعُونَ آبَاءَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا، وَلَا يَدْرِكُونَ رُشْدًا؟⁽⁷⁾.

"وَالْآيَةُ تَضَمَّنَتْ النَّهْيَ عَنِ التَّقْلِيدِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُتَابَعَةَ آبَائِهِمْ، وَأَمَرَ بِمُتَابَعَةِ الْعَقْلِ وَالْهُدَى"⁽⁸⁾، "وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى قُبْحِ التَّقْلِيدِ"⁽⁹⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).

(2) الخليل، العين، باب (عقل).

(3) الفيومي، المصباح المنير: (عقل).

(4) الرَّاغِب، المفردات: (عقل).

(5) السمرقندي، بحر العلوم: 1/423.

(6) الماوردي، التَّكْت والعُيُون: 2/306.

(7) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/26.

(8) الواحدي، التفسير البسيط: 3/490.

(9) الشوكاني، فتح القدير: 1/193.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

معنى الواو بين الاستئناف والعطف في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾:

اختلف المفسرون في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ على قولين:

اشترائك معنى
الاستئناف
والعطف في
التشنيع على
مخالفي أتباع
الحق

الأول: الواو استئنافية، وذلك على أن تكون نزلت في شأن اليهود، "وَذَلِكَ حِينَ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالُوا: نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَهُمْ كَانُوا خَيْرًا وَأَعْلَمَ مِنَّا؛ فَعَلَى هَذَا، الْآيَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ" (1).

الآخر: الواو عاطفة، قال ابن عاشور: "الْأَحْسَنُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: 168]، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْخِطَابِ فِي ذَلِكَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لِأَمْرِهِ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ" (2).

العطف هنا فيه "زيادة تفضيع لحال أهل الشرك، فَبَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ لَهُمْ اتِّبَاعَهُمْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فِيمَا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ إِعْرَاضِهِمْ عَمَّنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَتَسَبُّثُهَا بِعَدَمِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ دُونَ تَأْمُلٍ وَلَا تَدْبِيرٍ" (3).

فائدة العطف
زيادة تفضيع
لحال أهل
الشرك

دلالة أداة (إذا) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾:

"الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا﴾ التَّكَرُّارُ" (4)، فَهَذَا الْقَوْلُ لَمْ يَكُنْ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَجَوَابُهُمْ إِزَاءَهُ يَتَكَرَّرُ كَمَا هُوَ، وَفِيهِ إِيحَاءٌ بِنَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى دَعْوَتِهِمُ الرِّبَانِيَّةِ، وَالْكَافِرِينَ عَلَى مَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ

تكرار جواب
الكافرين دليل
على الإغراق في
الضلالة

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/489.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/106.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/106.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/103.

آبَاءَهُمْ السَّابِقِينَ، مِنْ ضَلَالِهِمُ الْعَاتِي الْمَهِينِ، وفي هذا التَّكرار بيانٌ منهج الكافرين في الثَّباتِ على الضَّلالِ والتَّشَبُّثِ في أذيالِ الكفرِ والخسارة.

إِنَارُ اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُنْبِيِّ لِلْمَفْعُولِ: ﴿قِيلَ﴾:

ليس مقصودٌ
التَّظْمِ تعيُّنِ
القائلِ، بل
تعيُّنِ وجوده

”وَبَنَى ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لَمْ يَسَمَّ فَاعِلُهُ، لِأَنَّهُ أَحْصَرَ، وَلَوْ ذَكَرَ الْأَمْرُونَ لَطَالَ الْكَلَامُ، لِأَنَّ الْأَمْرَ بِذَلِكَ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَنْ يَتَّبِعُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ“⁽¹⁾، وَتَرَكَ الْفَاعِلَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ يُوحِي بِالْكَثَرَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِمَّا يُكَرَّرُ، فَيَكْثُرُ الْقَاتِلُونَ تَبَعًا لَهُ، وَفِيهِ دَعْوَةٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَنْتَهَجَ نَهَجَ نَبِيِّهَا ﷺ فِي مَخَاطَبَةِ الضَّالِّينَ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ مَتَابَعَةِ الْأَبَاطِيلِ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ تَعْيِينَ الْقَائِلِ، بَلْ تَعْيِينَ وَجُودِهِ.

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾:

قد يُزَادُ بِالضَّمِيرِ
النَّاسُ، عَلَى
وَجْهِ الِاتِّفَاتِ،
أَوْ الْيَهُودَ، أَوْ
مُشْرِكِي الْعَرَبِ

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي بَيَانِ مَرْجِعِ ضَمِيرِ: ﴿لَهُمْ﴾؛ فَقِيلَ: يَرْجِعُ إِلَى الْيَهُودِ، وَقِيلَ: يَرْجِعُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَإِذَا كَانَتْ فِي الْيَهُودِ؛ ”فَعَلَى هَذَا الْآيَةُ مُسْتَأْنَفَةً، وَالْكِتَابَةُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ تَعُودُ إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ، إِلَّا أَنَّ الضَّمِيرَ قَدْ يَعُودُ عَلَى الْمَعْلُومِ، كَمَا يَعُودُ عَلَى الْمَذْكُورِ“⁽²⁾.

وَإِذَا كَانَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَالْكِتَابَةُ تَعُودُ إِلَى ﴿مَنْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ﴾ [البقرة: 165]، وَإِذَا كَانَتْ فِي الَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنَ الْحَرِّثِ وَالْأَنْعَامِ، فَالْكِتَابَةُ تَرْجِعُ إِلَى ﴿النَّاسِ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَّخِذُهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، عَدَلَ عَنِ الْمُخَاطَبَةِ إِلَى الْغَيْبَةِ⁽³⁾، وَرَجَّحَ هَذَا الطَّبْرِيُّ فَقَالَ: ”وَأَشْبَهُ عِنْدِي وَأَوْلَى بِالْآيَةِ، أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ وَالْمِيمُ فِي قَوْلِهِ ﴿لَهُمْ﴾ مِنْ ذِكْرِ ﴿النَّاسِ﴾، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رُجُوعًا مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ الْغَائِبِ، لِأَنَّ ذَلِكَ

(1) أبو حنَّان، للصدر السابق: 2/103.

(2) الرَّايزِي، مفاتيح الغيب: 5/188.

(3) الواحدِي، التَّفْسِيرُ التَّبْسِيطُ: 489-3/489.

عَقِيبَ قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، فَلَأَن يَكُونَ خَبَرًا عَنْهُمْ، أَوَّلَى مَنْ أَن يَكُونَ خَبَرًا عَنِ الَّذِينَ أُخْبِرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْآيَاتِ، وَانْقِطَاعِ قَصَصِهِمْ بِقِصَّةٍ مُسْتَأَنَفَةٍ غَيْرَهَا⁽¹⁾، وَهَذَا اخْتِيَارُ الزَّمَخْشَرِيِّ⁽²⁾.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: "وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ الْعَرَبِ"⁽³⁾، وَكَذَا عِنْدَ أَبِي حَيَّانٍ: "الضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى كُفَّارِ الْعَرَبِ، لِأَنَّ هَذَا كَانَ وَصْفَهُمْ، وَهُوَ الْإِقْتِدَاءُ بِآبَائِهِمْ"⁽⁴⁾.

وَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ، وَالْمَشْهُورُ بِاتِّبَاعِ الْآبَاءِ هُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، فَيَتَرَجَّحُ قَوْلُ ابْنِ عَطِيَّةَ: فَيَكُونُ الضَّمِيرُ رَاجِعًا عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ؛ وَذَلِكَ لِشُهْرَةِ الْخِلَافِ مَعَهُمْ.

براعة الالتفات في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾:

إِذَا كَانَ مَرْجِعُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ﴾ عَائِدًا إِلَى ﴿النَّاسِ﴾؛ فَيَكُونُ فِي الْآيَةِ التَّنْفَاتُ؛ "وَقَالَ آخَرُونَ: نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنَ الْحَرِّثِ وَالْأَنْعَامِ، وَالْكِنَايَةُ تَرْجِعُ إِلَى ﴿النَّاسِ﴾"، فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، عَدَلَ عَنِ الْمُخَاطَبَةِ إِلَى الْغَيْبَةِ⁽⁵⁾، وَإِنَّمَا عَدَلَ بِالْخِطَابِ عَنْهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِلْتِفَاتِ؛ لِلنَّدَاءِ عَلَى ضَلَالِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا ضَالَ أَضْلُ مِنَ الْمُقْلَدِّ، كَأَنَّهُ يَقُولُ لِلْعُقَلَاءِ: انْظُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْحَمَقَى مَاذَا يَقُولُونَ⁽⁶⁾! أَوْ "مُبَالِغَةً فِي بَيَانِ ضَلَالِهِمْ"⁽⁷⁾، أَوْ "تَسْجِيلًا بِكَمَالِ ضَلَالِهِمْ، وَإِذَا نَأَى بِإِجَابِ تَعْدَادِ مَا ذُكِرَ مِنْ جُنَايَاتِهِمْ؛ لَصَرْفِ الْخِطَابِ عَنْهُمْ، وَتَوَجُّهِهِ إِلَى الْعُقَلَاءِ، وَتَفْصِيلِ مَسَاوِي أَحْوَالِهِمْ"⁽⁸⁾.

إِبْرَارُهُمْ فِي
صُورَةٍ مِنْ دُعَايِ
إِلَى اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ
اللَّهِ، فَأُجَابَ
بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةِ
أَبِيهِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/305.

(2) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 1/213.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/238.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/102.

(5) الواحدي، التفسير التيسير: 3/489.

(6) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 1/213.

(7) الزَّازَنِي، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 5/188.

(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/188.

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: "وَحَكَمَتُهُ أَنَّهُمْ أُبْرِزُوا فِي صُورَةِ الْغَائِبِ الَّذِي يُتَعَجَّبُ مِنْ فِعْلِهِ، حَيْثُ دُعِيَ إِلَى اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَأَجَابَ بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةِ أَبِيهِ، وَكَأَنَّهُ يُقَالُ: هَلْ رَأَيْتُمْ أَسْخَفَ رَأْيًا وَأَعْمَى بَصِيرَةً، مِمَّنْ دُعِيَ إِلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَرَدَّ ذَلِكَ وَأَضْرَبَ عَنْهُ؟ وَاثْبَتَ أَنَّهُ يَتَّبِعُ مَا وَجَدَ عَلَيْهِ أَبَاهُ"⁽¹⁾؛ "كَأَنَّهُ التَّفَتُّ إِلَى الْعُقَلَاءِ، وَقَالَ لَهُمْ: انْظُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْحَمَقَى مَاذَا يُجِيبُونَ"⁽²⁾؛

غرض الأمر في قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾:

الأمر في قوله ﷺ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ لِلدَّعْوَةِ وَالنَّصِيحَةِ وَالْإِرْشَادِ؛ "وَإِذَا قِيلَ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ النَّصِيحَةِ وَالْإِرْشَادِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ، فَاعْمَلُوا بِتَحْلِيلِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ"⁽³⁾، تَلَطُّفًا بِهِمْ، وَخَوْفًا عَلَى مَصِيرِهِمْ، وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ.

فائدة إسناد الفعل لله تعالى في قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾:

فائدة إسناد الفعل ﴿أَنْزَلَ﴾ إلى الله تعالى في قوله ﷺ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، فلم يقل: (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلُ) هي "إِعْلَامٌ بِتَعْظِيمِ مَا أَمَرُوهُمْ بِاتِّبَاعِهِ، أَنْ نُسَبِّحَ أَنْزَالَهُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْمَشْرَعُ لِلشَّرَائِعِ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُتَلَقَّى بِالْقَبُولِ، وَلَا يِعَارِضُ بِاتِّبَاعِ آبَائِهِمْ رُؤُوسِ الضَّلَالَةِ"⁽⁴⁾.

أثر حرف الإضراب في تقدير الجملة المحذوفة:

حرف الإضراب ﴿بَلْ﴾ في قوله ﷺ: ﴿بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾،

شرع الله رحمة
ويُسِّرُ وحكمة
مع الناس
أجمعين

شأن بين الحق
النازل وأعراف
الهوى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/102.

(2) البضاوي، أنوار التنزيل: 1/119.

(3) البروسوي، روح البيان: 1/274.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/103.

عطفَ جملةً مذكورةً وهي ﴿نَتَّبِعْ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ على أخرى محذوفةٍ تقديرُها: " (لا) نَتَّبِعْ مَا أُنْزَلَ اللَّهُ، بَلْ نَتَّبِعْ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا)، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: اتَّبِعُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ" (1)، ذلك أن حرفَ "بَلْ: إِضْرَابٌ إِبْطَالٍ، أَي: أَضْرِبُوا عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾، إِضْرَابٌ إِعْرَاضٍ بِدُونِ حُجَّةٍ، إِلَّا بِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ ءَابَاءُهُمْ" (2).

تَوْجِيهِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ: ﴿مَا أَلْفَيْنَا﴾، وَ﴿مَا وَجَدْنَا﴾:

لسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعْ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 170)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ (لقمان: 21)، وقوله في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ (المائدة: 104)، فقال هنا في سورة البقرة: ﴿مَا أَلْفَيْنَا﴾، وقال في سورة المائدة: وسورة لقمان: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾.

اختصاص
(ألفيت) بنوع
دلالة عن
(وجدت)

وَقَدْ أَجَابَ الْخَطِيبُ الْإِسْكَافِيُّ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "أَنَّ ﴿أَلْفَيْنَا﴾ يَقْصِدُ بِهَا بَعْضُ الْوُجُوهِ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ عَلَيْهَا ﴿وَجَدْنَا﴾؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: وَجَدْتُ الشَّيْءَ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مَفْعُولٍ ثَانٍ إِذَا وَجَدْتُهُ عَنْ عَدَمٍ، وَلِوُجْدَانِ الضَّالَّةِ تَقُولُ: وَجَدْتُ الضَّالَّةَ، وَتَقُولُ: وَجَدْتُ زَيْدًا عَاقِلًا، فَيَكُونُ الْوُجُودُ مُتَعَلِّقًا بِالْخَبَرِ الَّذِي هُوَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي، فَلَا بُدَّ لَهُ فِي هَذَا الْوَجْهِ مِنْهُ، وَلَا يَكْتَفِي بِالْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: أَلْفَيْتُ، فَإِنَّهَا مَحْصُوصَةٌ بِهَذَا الْوَجْهِ مِنْ وَجْهِهِ (وَجَدْتُ)، لَا يُقَالُ: أَلْفَيْتُ دَرَهَمًا، بِمَعْنَى: وَجَدْتُ دَرَهَمًا، وَلَا أَلْفَيْتُ الضَّالَّةَ بِمَعْنَى وَجَدْتُهَا، وَإِنَّمَا يُقَالُ: أَلْفَيْتُ زَيْدًا عَاقِلًا، وَأَلْفَيْتُهُ عَلَى الْهُدَى وَعَلَى الضَّلَالَةِ، فَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ الْأَخْصِ أَوَّلَى، وَتَأْخِيرُ اللَّفْظِ الْمَشْتَرَكِ إِلَى الْمَكَانِ الثَّانِي أَوَّلَى" (3).

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/103، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/501.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/106.

(3) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرر التأويل: 1/310-312.

تَخْرِيرُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

صَحَّةُ اجْتِمَاعِ
مَعْنَى الْإِنْكَارِ
وَالْتَعَجُّبِ
وَالْتَوْبِيخِ فِي
هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ

اختلف المفسرون في معنى الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: الهمزة بمعنى الرَّدِّ والتَّعَجُّبِ؛ والمعنى: "أَيَّتَبِعُونَهُمْ وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ وَلَا يَهْتَدُونَ لِلصَّوَابِ" (1)؛ فإنهم لما قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا﴾، عَقَّبَ عَلَى هَذَا الْإِتْبَاعِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ، فَلِذَلِكَ تَسَلَّطَ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى فِعْلِ الْإِتْبَاعِ؛ فَالْتَقْدِيرُ عِنْدَ الرَّمْخَشَرِيِّ: (أَيَّتَبِعُونَهُمْ) (2)؛ "دَخَلَتْ هَمْزَةُ التَّعَجُّبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ" (2).

القول الثاني: الهمزة للتَّوْبِيخِ، "وَأِنَّمَا جُعِلَ الْفُ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي مَا الْإِفْرَارُ بِهِ فَضِيحَةٌ، كَمَا يَقْتَضِي الِاسْتِفْهَامُ الْإِخْبَارَ عَنِ الْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ، وَفِي هَذَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِذَا جَازَ لَكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا آبَاءَكُمْ فِيمَا لَا تَدْرُونَ أَعْلَى حَقِّ هُمْ فِيهِ أَمْ بَاطِلٍ، فَانْتُمْ كَمَنْ قَالَ: نَتَّبِعُهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى بَاطِلٍ! وَهَذَا غَايَةُ الْفَضِيحَةِ" (3).

"وَأِنَّمَا جُعِلَتْ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ لِلتَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهَا تَقْتَضِي الْإِقْرَارَ بِشَيْءٍ يَكُونُ الْإِفْرَارُ بِهِ فَضِيحَةً، كَمَا يَقْتَضِي الِاسْتِفْهَامُ الْإِخْبَارَ عَنِ الْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ" (4).

القول الثالث: الهمزة للإنكار، وهي تدلُّ على عدم عقليهم، فإنَّ "هَمْزَةَ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ عَدَمِ الْعَقْلِ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ قَصَدُوا اتِّبَاعَهُمْ مُطْلَقًا، فِي حَالَةِ الْعَقْلِ وَعَدَمِهِ، أَيُّ: أَيَّتَبِعُونَ إِيَّاهُمْ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" (5)، وفيه بيان حماقة القوم في اتِّبَاعِ آبَائِهِمْ فِيمَا يُعْقَلُ وَمَا لَا يُعْقَلُ؛ فَالْآيَةُ "اسْتِنَافٌ مُسَوِّقٌ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى، رَدًّا لِمَقَالَتِهِمُ الْحَمَقَاءَ، وَإِظْهَارًا لِبُطْلَانِ آرائِهِمْ" (6).

(1) الرَّمْخَشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 1/213.

(2) الطَّبِيبِي، فَتوح الْغَيْبِ: 192-3/193.

(3) الْوَاحِدِيُّ، التَّفْسِيرُ الْبَسِيطُ: 490/3.

(4) الرَّازِيُّ، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 188/5.

(5) ابْنُ عَرَفَةَ، تَفْسِيرُ ابْنِ عَرَفَةَ: 503/2.

(6) أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 1/188.

والصَّحِيحُ أَنَّ هذه المعاني جميعها وحيهه في الاستفهام، فَإِنَّ التَّعْجِبَ من حال المشركين يقتضي الإنكار عليهم، ولا يكون الأمر منكراً إلا وصاحبه قد لحقه التوبيخ، ولذلك قال أبو حيان: "الهمزة للاستفهام المصحوب بالتوبيخ والإنكار والتعجب من حالهم"⁽¹⁾، وهي: "لإنكار الواقع واستباحه والتعجب منه"⁽²⁾.

وقال ابن عاشور: "وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٠)، كَلَامٌ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، لِلرَّدِّ عَلَى قَوْلِهِمْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَإِنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَمَّا حَكَاهُ عَنْهُمْ، رَدَّ قَوْلَهُمْ هَذَا بِاسْتِفْهَامٍ يُقْصَدُ مِنْهُ الرَّدُّ، ثُمَّ التَّعْجِيبُ، فَالْهَمْزَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْإِنْكَارِ كِنَايَةً، وَفِي التَّعْجِيبِ إِيْمَاءً، وَالْمُرَادُ بِالْإِنْكَارِ الرَّدُّ وَالتَّحْطِئَةُ، لَا الْإِنْكَارَ بِمَعْنَى النِّفْيِ"⁽³⁾.

**الهمزة
مستعملة في
الإنكار كناية،
وفي التعجب
إيماء**

أقوال المفسرين في معنى الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾:

اختلف المفسرون في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ﴾ على قولين:
القول الأول: الواو للعطف، قال الواحدي: "وَالْوَاوُ فِي ﴿أَوَلَوْ﴾ وَאוُ الْعُطْفِ، دَخَلَتْ عَلَيْهَا أَلِفُ الاسْتِفْهَامِ"⁽⁴⁾، "وَالْوَاوُ لِلْعُطْفِ قِيلَ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْبَيضَاوِيُّ"⁽⁵⁾، وَلَا أَعْلَمُ لَهُ سَلْفًا فِيهِ، وَهُوَ وَجِيهٌ جِدًّا، أَيُّ: قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ"⁽⁶⁾.

القول الثاني: الواو للحال، قال الزمخشري: "﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾: الواو للحال"⁽⁷⁾، وَالْوَاوُ حَالِيَّةٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ مَسُوقَةٌ لِاسْتِنْكَارِ اتِّبَاعِ آبَائِهِمْ فِي كُلِّ حَالَةٍ، حَتَّى فِي الْحَالَةِ الَّتِي لَا مَسَاغَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَهَا، وَيَجْنَحَ إِلَيْهَا، وَهِيَ تَلْبَسُهُمْ بِعَدَمِ الْعُقُولِ وَانْتِفَاءِ الْهِدَايَةِ"⁽⁸⁾.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/103.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/188.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/106.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 3/490.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/119.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/108.

(7) الزمخشري، الكشاف: 1/213.

(8) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/238.

الواو إما أن
تُحمل على
العطف أو
الحال، ولكل
معنى تفسير

وَقَدْ فَصَّلَ أَبُو حَيَّانَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: "وَأَمَّا الْوَائِدُ بَعْدَ الْهَمْزَةِ، فَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: الْوَائِدُ لِلْحَالِ، وَمَعْنَاهُ: أَتَتَّبِعُونَهُمْ، وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ وَلَا يَهْتَدُونَ لِلصَّوَابِ؟" وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: الْوَائِدُ لِعَطْفِ جُمْلَةٍ كَلَامٍ عَلَى جُمْلَةٍ، لِأَنَّ غَايَةَ الْفَسَادِ فِي الْإِلْتِزَامِ أَنْ يَقُولُوا: نَتَّبِعُ آبَاءَنَا وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ، فَقَرَّرُوا عَلَى التَّزَامِ هَذَا، أَيْ هَذِهِ حَالُ آبَائِهِمْ، انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَزَاهِرُ قَوْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ أَنَّ الْوَائِدَ لِلْحَالِ، مُخَالِفٌ لِقَوْلِ ابْنِ عَطِيَّةَ أَنَّهَا لِلْعَطْفِ، لِأَنَّ الْوَائِدَ لِلْحَالِ لَيْسَتْ لِلْعَطْفِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُصْحُوَّةُ بِ(لَوْ) فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ، هِيَ جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ؛ فَإِذَا قَالَ: (اضْرِبْ زَيْدًا وَلَوْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ)، الْمَعْنَى: وَإِنْ أَحْسَنَ، وَكَذَلِكَ: (أَعْطُوا السَّائِلَ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ، رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)، الْمَعْنَى فِيهَا: (وَإِنْ)، وَتَجِيءُ (لَوْ) هُنَا تَنْبِيْهًُا عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهَا لَمْ يَكُنْ يُنَاسِبُ مَا قَبْلَهَا، لَكِنَّهَا جَاءَتْ لِاسْتِقْصَاءِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْفِعْلُ، وَلِتَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ وُجُودُ الْفِعْلِ فِي كُلِّ حَالٍ، حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي لَا تُنَاسِبُ الْفِعْلَ، وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ: (اضْرِبْ زَيْدًا وَلَوْ أَسَاءَ إِلَيْكَ)، وَلَا (أَعْطُوا السَّائِلَ وَلَوْ كَانَ مُحْتَاجًا)، وَلَا (رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِمِئَةِ دِينَارٍ)"⁽¹⁾.

حَذَفُ جَوَابِ (لَوْ) لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾:

حُذِفَ جَوَابُ (لَوْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ وَقَدْ دُلَّ عَلَيْهِ السَّبَاقُ، وَالْمَعْنَى: "أَتَتَّبِعُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنْ كَانُوا جُهَالًا؟" فَتَرَكَ جَوَابَ (لَوْ) لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ، يَتَّبِعُونَهُمْ؟⁽²⁾، أَوْ "لَا تَتَّبِعُونَهُمْ، وَالْمُسْتَنْهَمُ عَنْهُ هُوَ الْإِرْتِبَاطُ الَّذِي بَيْنَ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ، وَإِنَّمَا صَارَتِ الْهَمْزَةُ لِلرَّدِّ لِأَجْلِ

(1) أَبُو حَيَّانَ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ: 103/2-104.

(2) الْوَاحِدِيُّ، التَّفْسِيرُ الْبَيْسِيُّ: 3/489، وَالْبِيضَاوِيُّ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ: 1/119.

براعة التَّزْكِيكِ
الْقُرْآنِيِّ وَوَجَازَةِ
لَفْظِهِ

الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمُسْتَفْتَهَ عَنْهُ يُجَابُ عَنْهُ بِالْإِثْبَاتِ بِقَرَائِنِ حَالِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ وَالْمُسْتَفْتِهِمْ، وَمِثْلُ هَذَا التَّرْكِيبِ مِنْ بَدِيعِ التَّرَاكِيبِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَعْلَاهَا إِيجَازًا، وَ(لَوْ) فِي مِثْلِهِ تُسَمَّى وَصْلِيَّةً⁽¹⁾.

إِطْلَاقُ الْعُمُومِ وَإِزَادَةُ الْخُصُوصِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْْقِلُونَ شَيْئًا﴾:

نَفَتْ الْآيَةُ عَنْ مَتَّبِعِي الْأَبَاءِ الْعَقْلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْْقِلُونَ شَيْئًا﴾، وَهُوَ نَفْيٌ عَامٌّ، لَكِنَّ "مَعْنَاهُ الْخُصُوصُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْْقِلُونَ أَمْرَ الدُّنْيَا، وَمَعْنَاهُ: لَا يَعْْقِلُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَعْْقِلُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى دِينِهِ"⁽²⁾، وَ"هَذَا يُدُلُّ عَلَى جَوَازِ ذِكْرِ الْعَامِّ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْخَاصُّ"⁽³⁾.

نفى العام جار
على طريقة
البلغاء، يجعل
الغالب أمرًا كليًا
عامًا

فَالنَّفْيُ هُنَا "جار على طريقة البلغاء في المبالغة، يجعل الغالب أمرًا كليًا عامًا، يَقُولُونَ فِي الضَّالِّ فِي عَامَّةِ شُؤْنِهِ: إِنَّهُ لَا يَعْقِلُ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدِي إِلَى الصَّوَابِ، وَيَقُولُونَ فِي الْبَلِيدِ إِنَّهُ لَا يَفْهَمُ شَيْئًا، وَهَذَا لَا يُنَافِي أَنْ يَعْقِلَ الْأَوَّلُ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ، وَيَفْهَمُ الثَّانِي بَعْضَ الْمَسَائِلِ"⁽⁴⁾.

إِعْرَابُ ﴿شَيْئًا﴾ مَبْنِيٌّ عَلَى مَعْنَى الْعُمُومِ:

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ: "وَأَنْتِصَابُ ﴿شَيْئًا﴾ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، فَعَمَّ جَمِيعَ الْمَفْعُولَاتِ، لِأَنَّهَا نِكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعَمُّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْوَحْدَةِ فَيَكُونَ الْمَعْنَى لَا يَعْْقِلُونَ شَيْئًا بَلْ أَشْيَاءَ، وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيَّ: شَيْئًا مِنَ الْعَقْلِ، وَإِذَا انْتَفَى، انْتَفَى سَائِرُ الْعُقُولِ"⁽⁵⁾.

وَلَمَّا دَخَلَتْ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ عَدَمِ الْعَقْلِ، دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُمْ قَصَدُوا اتِّبَاعَهُمْ مُطْلَقًا، فِي حَالَةِ الْعَقْلِ وَعَدَمِهِ، أَيَّ: أَتَّبِعُونَهُمْ وَلَوْ كَانُوا ﴿لَا يَعْْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ وَهَذَا نَفْيٌ أَخْصُصُ، فَالْتَّأَكِيدُ بِالْمَصْدَرِ دَخَلَ عَلَى الْمَنْفِيِّ فَأَكَّدَهُ؛ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى النَّفْيِ، وَإِنْ جَعَلْتَ ﴿شَيْئًا﴾ مَفْعُولًا، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى هَذَا⁽⁶⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 106.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/490.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/189.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/75.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 2/104.

(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.

تَوْجِيهٌ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

وجه التشابه بين ما في البقرة: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وما في المائدة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

لسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، فقال في البقرة: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال في المائدة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَقَدْ أَجَابَ الْخَطِيبُ الْإِسْكَافِيُّ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "إِنَّ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ رُتْبَةً لَيْسَتْ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَإِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا بَيَّنَّهَا سَهَلَتْ عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ مَا أَوْجَبَ تَخْصِصَ كُلِّ مَكَانٍ بِاللَّفْظِ الْمُخْتَصِّ بِهِ؛ فَقَوْلُ الْقَائِلِ: (يَعْلَمُ)، مَعْنَاهُ: يُدْرِكُ الشَّيْءَ عَلَى مَا هُوَ بِهِ مَعَ سُكُونِ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: (يَعْقِلُ)، مَعْنَاهُ يَحْصُرُهُ بِإِدْرَاكِ لَهُ عَمَّا لَا يُدْرِكُهُ، وَلِذَلِكَ جَازَ أَنْ تَقُولَ: يَعْلَمُ اللَّهُ كَذَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: يَعْقِلُ اللَّهُ كَذَا؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ: الشَّدَّ، وَالْعَاقِلُ: الَّذِي يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الشَّهَوَاتُ، وَلَا شَهْوَةَ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَحْبِسَ عَنْهَا، فَلِذَلِكَ لَا يُقَالُ: اللَّهُ عَاقِلٌ، وَيُقَالُ: عَقَلَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، وَهُوَ يَعْقِلُهُ بِمَعْنَى حَصَرَهُ، بِإِدْرَاكِهِ لَهُ عَمَّا لَا يُدْرِكُهُ، وَشَدَّهُ بِتَمْيِيزِهِ لَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا كَانَتْ رُتْبَةُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ زَائِدَةً عَلَى رُتْبَةِ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ فَقَالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104] فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ ادَّعَوْا رُتْبَةَ الْعِلْمِ بِصَحَّةٍ مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، وَلَفْظَةُ ﴿حَسْبُنَا﴾ تُسْتَعْمَلُ فِيمَا يَكْفِي فِي بَابِهِ، وَيُعْنِي عَنْ غَيْرِهِ، فَالْمُدْرِكُ لِلشَّيْءِ إِذَا أَدْرَكَهُ عَلَى مَا هُوَ بِهِ، وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ حَسْبُهُ، فَاسْتَعْمَلَ لَفْظَةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وَنَفَى عَنْهُمْ الْهِدَايَةَ، لِأَنَّهُمْ ادَّعَوْهَا بِقَوْلِهِمْ: ﴿حَسْبُنَا﴾، فَكَانَهُمْ قَالُوا: مَعَنَا عِلْمٌ سَكَنَتْ نَفْسُنَا إِلَيْهِ، مِمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مِنَ الدِّينِ، فَنَفَى مَا ادَّعَوْهُ بِعَيْنِهِ، وَهُوَ الْعِلْمُ⁽¹⁾.

(1) الخطيب الإسكافي، دَرَجَةُ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةُ التَّأْوِيلِ: 315-310/1.

فائدة الحذف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ والمعنى: ولا يهتدون إلى شَيْءٍ، "وَهَذِهِ الْحَالَةُ مُمْتَنِعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ لِابَائِهِمْ عُقُولًا تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ، وَفِيهِمْ بَعْضُ الْإِهْتِدَاءِ، مِثْلُ اهْتِدَائِهِمْ إِلَى إِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى بَعْضِ مَا عَلَيْهِ أُمُورُهُمْ مِنَ الْخَيْرِ؛ كَاِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ، وَقِرَى الضَّيْفِ، وَحِفْظِ الْعَهْدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ"⁽¹⁾، فأُطْلِقَ نَفْيَ الْإِهْتِدَاءِ وَأَرَادَ بِهِ خُصُوصَ الْهِدَايَةِ الْمَوْصَلَةِ إِلَى النِّجَاةِ؛ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالاعْتِرَافَ لَهُ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ، أَوْ الاعْتِرَافَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَإِنْكَارَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يُؤَدِّي إِلَى النِّجَاةِ أَبَدًا، فَلَا بَدَّ مِنَ الاعْتِرَافِ وَالْإِقْرَارِ بِالْهِدَايَةِ الْقُرْآنِيَّةِ بِكَامِلِ شُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا، وَفَائِدَةُ الْإِطْلَاقِ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ الْهِدَايَةَ الْمَوْصَلَةَ إِلَى النِّجَاةِ، عَدَمُ اعْتِبَارِ أَيِّ هِدَايَةٍ إِلَّا الْهِدَايَةَ الْمُنْجِيَّةَ.

عدم اعتبار أي
هداية لا توصل
إلى النجاة عند
الله بمعيار
القرآن

سِرُّ تَقْدِيمِ نَفْيِ الْعَقْلِ عَلَى نَفْيِ الْهِدَايَةِ:

قُدِّمَ نَفْيُ الْعَقْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ عَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٢)؛ "لِأَنَّهُ الَّذِي تَصَدَّرَ عَنْهُ جَمِيعُ التَّصَرُّفَاتِ، وَأَخَّرَ نَفْيَ الْهِدَايَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَرَتَّبٌ عَلَى نَفْيِ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ الْهِدَايَةَ لِلصَّوَابِ هِيَ نَاشِئَةٌ عَنِ الْعَقْلِ، وَعَدَمُ الْعَقْلِ عَدَمٌ لَهَا"⁽²⁾، وَالْعَقْلُ أَصْلُ الْهِدَايَةِ؛ فَلَا يَهْتَدِي مَنْ كَانَ فَاقِدًا لِلْعَقْلِ، وَبِهِ يَظْهَرُ أَثَرُ هَذِهِ الْجَوْهَرَةِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ، وَأَنَّ الْمَشْرِكِينَ لَمَّا فَقَدُوهَا، فَقَدُوا الْخَيْرَ كُلَّهُ.

الأصل مُقَدَّم
على الفرع

نَفْيُ الْعَقْلِ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْهِدَايَةِ، فَمَا أُبَيِّنَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

لسائل أن يسأل عن ذكر الهداية بعد العقل، ومعلوم أن نفي العقل يتضمن نفي الهداية؟! "فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُرَادَ ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ مِنْ

مَوْضُوعُ
العقل التَّدْبِيرُ،
ومَوْضُوعُ
الْإِهْتِدَاءِ الْإِتْبَاعُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/110.

(2) أبو حيان، البحر المحيط، : 2/104.

ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ بَهَّهُمْ غَيْرُهُمْ لَمَا اهْتَدَوْا⁽¹⁾، كما أَنَّ موضوعَ العقلِ يختلفُ عن موضوع الهداية؛ "فمَوْضُوعُ الْعَقْلِ تَفَكُّرٌ، وَتَدَبُّرٌ، وَطَرِيقُهُ الْمَنْطِقُ وَالْبُرْهَانُ، وَمَوْضُوعُ الْإِهْتِدَاءِ اتِّبَاعٌ لِهَادٍ مُرْشِدٍ، كَنْبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَمَا كَانَ لَهُمْ عَقْلٌ مُفَكِّرٌ وَلَا هَادٍ يَهْتَدُونَ بِهِدْيِهِ"⁽²⁾، فَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾، يُرَادُ مِنْهُ عَدَمُ عِلْمِهِمْ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ يُرَادُ مِنْهُ عَدَمُ هِدَايَتِهِمْ إِلَى كَيْفِيَّةِ اكْتِسَابِهِ⁽³⁾.

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

(وَجَدَ) وَ(أَلْفَى):

لفظ (ألفى)
وجودٌ بهيئةٍ
خاصَّةٍ، ولفظ
(وجدَ) وجودٌ
عامٌّ

جَعَلَهُمَا الرَّازِي بِمَعْنَى وَاحِدٍ: "أَلْفَيْنَا بِمَعْنَى وَجَدْنَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿بَلْ نَتَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [الأنعام: 21]"⁽⁴⁾، وَفَرَّقَ غَيْرُهُ، فَقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: "كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّمَا لَمْ يَقُولُوا: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى وَاحِدًا؛ لِأَنَّ الْوَجْدَانَ يَكُونُ اتِّفَاقِيًّا عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، وَمِنْهُ وَجْدَانُ الضَّالَّةِ، وَ﴿أَلْفَيْنَا﴾ يَقْتَضِي وَجْدَانَ مَا كَانَ ثَابِتًا دَائِمًا مُسْتَقَرًّا"⁽⁵⁾.

أَلْفَيْنَهُ يُصَلِّي: وَجَدْتُهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ⁽⁶⁾، فَفِيهِ مَعْنَى الْوُجُودِ عَلَى هَيْئَةٍ خَاصَّةٍ، وَأَمَّا الْوُجُودُ مَدْلُولُ (وَجَدَ) فَهُوَ وُجُودٌ عَامٌّ، وَفِي الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى الْإِتِّبَاعِ بِلَا تَدَبُّرٍ، بَلْ بِتَقْلِيدٍ أَعْمَى، وَهُوَ مَوْضُوعُ الْآيَةِ فَنَاسَبَهُ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الأنعام: 69]، "أَيَّ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَاتَّبَعُوهُمْ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ، مُسْرِعِينَ فِي ذَلِكَ لَا يُتَبَّطُّهُمْ شَيْءٌ"⁽⁷⁾، "أَيَّ دُونَ تَدَبُّرٍ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ"⁽⁸⁾.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/503.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/189.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/188.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/501.

(6) الفيومي، الصباح المنير: (الفي).

(7) أبو حيان، البحر المحيط: 9/107.

(8) جبل، للعجم الاشتقاق المؤمل: (لغو).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 2، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 8-53-798-9948-978

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 2: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 8-53-798-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»